ذكريات السنين الخمس

عبد القادر حمزة باشا

للأستاذ محمود الشرقاوى

في قرب الساعة الحادية عشرة من صباح يوم الإثنين ٤ يونيو لسنة ١٩٣٤ قدم إلى حيث كنا نشتغل بتحرير صحيفة أدبية أحد السماة في جريدة « البلاغ » وطلب إلى أن أتوجه لملاقاة الأستاذ عبد القادر حمزة ؛ وفي مساء ذلك اليوم لقيت لأول مرة ذلك الرجل الذي أحببته وأكبرته . وبدأت عملي محرراً معه في « البلاغ » خمس سنين

كنت قبل هذا التاريخ لا يفوتني شيء مما يكتبه عبد القادر حمزة . وكنت أجد في قراءته مثل ما يجد الشارب الذواق من كأس خمر معتقة ؛ فلما اتصلت بيني وبينه الأسباب وخالطته بالعمل والعشرة زاد حبي له وزدت إعجاباً بشخصه

أما عبد القادر حمزة الكاتب والسياسي والمؤرخ ، وعبد القادر حمزة المجاهد الصادق الجهاد في سبيل مصر والحركة الوطنية والدستور ، وعبد القادر حمزة الخصم السياسي ، فذلك كله ليس من شأني أن أكتب عنه اليوم لقراء « الرسالة » ؛ فقد كتب فيه وسيكتب كثيرون غيري . وسيكتب التاريخ عن هذا كله كلمة الحق

أما أنا فسأكتب شيئاً من ذكريات تلك السنين الخمس التي قضيتها في صحبة عبد القادر حمزة باشا صاحب « البلاغ »

* * *

كان أستاذنا عبد القادر رجلاً أميز ما ينفرد به من الخلق : الطيبة والتواضع وبساطة النفس والعناد ، ثم الانكفاف عن الناس وعفة القلم واللسان

في صباح يوم من صيف إحدى السنوات القريبة أراد المرحوم عبد القادر باشا أن يزور رجلاً من كبار رجال الدولة في ذلك العهد . وكان عملي في « البلاغ » يجعلني من ألصق الناس بذلك الرجل ، فنادانى الأستاذ عبد القادر وطلب أن أرافقه في زيارة ذلك العظيم ليشكره على أمر ما

فلما أخذنا أماكن جلوسنا في سيارة الأستاذ بدأت أحدثه عن ذلك العظيم ، فقال إنه لا يعرفه إلا أقل المعرفة ، وأنه لم يجتمع به سوى مرات قليلة في مناسبات مكتفياً بالتحية من بعيد ، فتعجبت مما قال ! كيف لا يعرف الأستاذ عبد القادر حمزة وهو من أبرز رجال المجتمع المصري ذلك الرجل الكبير من رجال الدولة ... ! ؟ وكان له في ذلك الحين شأن عظيم حتى في الأمور السياسية التي يشتغل بها صاحب البلاغ ؛ ولكن هكذا كان عبد القادر حمزة قليل الأصدقاء قليل الخلطة بالناس منكفاً عنهم بما يستطيع

وفي ذلك الوقت نفسه كانت الخصومة السياسية على أشد عنفوانها بين البلاغ وبين حكومة يؤيدها صاحب المقام الرفيع النحاس باشا . وكانت صحف الوفد في ذلك الحين تذكر اسم عبد القادر حمزة مقترناً باسم ذلك العظيم الذي كنا نقصد زيارته ، وأنهما يجتمعان في قصر عظيم آخر كان اسمه في ذلك الوقت أبرز الأسماء في ميدان السياسة المصرية المعارضة للنحاس باشا ، وكان من كبار رجال القصر . فقلت للأستاذ عبد القادر : ولكن صحف الوفد تقول إنك تجتمع مع هذا العظيم في قصر فلان لتدبير المؤامرات لحكومة النحاس باشا . فأجاب الأستاذ بهدوئه العظيم : دعهم يقولون

ثم عرفت بعد ذلك أنه كان صادقاً حين قال إنه لا يعرف ذلك العظيم ولم يجلس إليه قبل تلك الزيارة

وكان الأستاذ عبد القادر حمزة رجل كفاح وجلد ، عظيم الثقة بنفسه إلى حد عجيب

بعد هذا التاريخ بسنتين كان ذلك الصراع الهائل الجبار الذي سيبقى خالداً في تاريخ الصحافة المصرية ، وخالداً في تاريخ السياسة المصرية كلها ، ذلك الصراع الذي قام به عبد القادر حمزة وحده مواجهاً به ومتحدياً أقوى حكومة استندت إلى قوة الرأي العام المصري وإلى قوة البرلمان وإلى عزة النجاح في مفاوضة الإنجليز

وتوقيع معاهدة معهم ، وإلى إلغاء الامتيازات الأجنبية وإنهاء سيطرتها . وكان عبد القادر حمزة يبدو لنا فى ذلك الحين — وأنا أحد الذين عملوا معه فى ذلك الصراع — كان يبدو لنا كمن يريد أن يمسك بأصابعه الخمس جبلاً شامخاً راسخاً صلداً فيفتته ويجعل منه تراباً منهالاً

ولكن عبد القادر حمزة ظل يكافح فى كل يوم وحده حتى نحر الجبل الشامخ الراسخ ، ولم تهن عزيمته يوماً ، ولم يفقد ثقته بنفسه على رغم ما لقى فى ذلك من موئسات كانت تهد عزم الجليد

فى أيام ذلك الصراع العجيب ، كان يهيئ حملاته الصحفية ويرقبها بفكر منظم لا يستطيع أن يهيئه سواه

وكانت إحدى حملاته تلك تقوم على وثائق تثبت سوء اختيار الوزارة القائمة إذ ذاك لتوزيع الرتب والألقاب الملكية ؛ وكلفنى الحصول على وثيقة تثبت أن واحداً من الذين نالوا رتب التشريف إذ ذاك من أصحاب السلوك السيئ . واستطعت أن أنقل إليه الصيغة الرسمية لتلك الوثيقة من حفظى وقدمتها إليه وهو لا يكاد يصدق . ومرت الأيام والأسابيع ولم يبدأ حملته تلك ولم ينشر وثيقتى أو يشر إليها ، حتى ظننت أنه لم يعتمد على ثقتى

ولكنه بعد وقت طويل بدأ ينشر وثائق تلك الحملة بعد أن هيأها فكره المنظم العجيب ؛ وكانت وثيقتى واحدة من نظيرات كثيرات جعل منها عبد القادر حمزة عملاً من أعظم ما قام به صحفى فى مصر : براعة وقوة وتوفيقاً

وهو فى كل هذا الصراع القاتل لم ينس مرة واحدة عفة قلمه ولسانه فى الخصومة . لا أذكر أنى سمعت منه فى ألد خصومه أعنف من هذه الكلمة : « هؤلاء ناس مضللون ! »

كان محرر « السينما والمسرح » فى « البلاغ » فى إحدى تلك السنين شاباً قليل الخبرة ، ولو أنه طاهر النفس . فكتب عن إحدى الممثلات المصريات كلمة ذات وجهين أحدهما قبيح ؛ وتحدثت هى فى ذلك بالتلفون إلى عبد القادر باشا ، وبعد لحظة دعا ذلك المحرر عنده ، وعنفه أشد التعنيف ، وأمر بفصله من « البلاغ » . وكان كثيراً ما يفعل ذلك معه ومع غيره ثم يعفو ، ولكنه فى هذه المرة لم يقبل فيه شفاعة شافع . ولم ير العاملون مع عبد القادر حمزة أنه غضب من شىء بمثل ما غضب فى ذلك .

وكان من صفات عبد القادر حمزة أنه عنيف فى حبه عنيف فى بغضه ، وذلك شأن صاحب القلب العظيم

ذلك الصراع الذى أشرت إليه بينه وبين خصومه فى السياسة والحكم دام سنتين لقى فيها عبد القادر حمزة من المحن والجبروت ما يوهن عزائم جيش من الرجال الصامدين ؛ وكان هو بين تلك الزعازع كالأشم الراسخ ، لا تنال منه الرياح ولا الأعاصير ، ولا يزيده المحن إلا عناداً . كنا نراه فى « البلاغ » يزلزل أقدام خصومه فى كل يوم . ثم هو يسير إلى حجرته صامتاً ويجلس إلى مكتبه صامتاً ، ويكتب ويراجع ويصحح صامتاً ، ويعود للعمل فى المساء صامتاً ، كأن هذه القيامة القائمة فى مصر ليست منه ولا بسببه ؛ وكان فى أشد الأيام حلوكة وسواداً لا ينى يقول : نحن قريبون من النصر . ولست أنسى ضحى ذلك اليوم وقد انتهى فيه صراع عبد القادر حمزة إلى نجاح فريد ؛ وقد صعد ذلك الرجل الوقور على درج « البلاغ » متهلل الوجه غير صامت . بل كان يصيح إلى كل من يلاقيه فى صوت قوى : لقد أقبل [...] ... !

ولا يزال فى وحى صوت عبد القادر حمزة إذ ذاك أحس فيه قوة الغلب والنصر بعد كفاح طويل وبعد صبر طويل . ذلك قلب الرجل الذى هو قوى فى بغضه قوى فى حبه ، وذلك هو كان فى بغضه !

أما عبد القادر حمزة فى حبه ، فذلك شأن عجيب

فى صيف سنة ١٩٣٨ كان المرحوم عبد القادر باشا مسافراً إلى أوربا ، وكنت إذ ذاك فى الإسكندرية ؛ فذهبت لوداعه على الباخرة محمد على الكبير . وبقيت معه على ظهرها حتى أوشكت على الرحيل . ونظرت إلى وجه أستاذنا العظيم فى تلك اللحظة القاسية — لحظة الوداع — وكان إلى جانبه أحد أولاده وقد وقف ينظر وكأنه يبكى ، إلى أولاده الآخر ومودعيه على الميناء . فلما